ابراهيم خليل

هموم الاديب العربي المعاصر

الهموم التي يعيشها الاديب العربي المعاصر لاتختلف عن الهموم التي يعيشها الانسان العربي ، الا من حيث الدرجة في الكم والكيف وباقي الاختلاف في الدرجة من حيث ان الاديب العربي ينتمي الى شريحة اجتماعية هي النخبة المثقفة او (الانتلجنسيا) التي تقف في مقدمة الطليعة الهادفة من خلال عملها الى التغيير الاجتماعي .

ويفيدنا التشريح العلمي لطبيعة التركيب الاجتماعي في الدول النامية او دول العالم الثالث،في ان هذهالشريحة الاجتماعية ليست شريحة متجانسة بمعنى انها لا تشكل طبقة اجتماعية بالمعنى العلمي لهذه الكلمة ، وانها أي هذه الشريحة الاجتماعية خليط من الطبقتين الغنية والفقيرة ثم ــ وهو العنصر الغالب عليها كثيرا الطبقة المتوسطة وهموم هذه الفئات او الطبقات الاجتماعية غالبا ما تؤثر تأثيرا كبيرا في هموم النخبة المثقفة .

وتبدو فئة الادباء من شعراء وكتاب قصة قصيرة او رواية او نقاد ادبيين او باحثين ودارسين وصحافيين اكثر فئة من فئات الانتلجنسيا او النخبة المثقفة تكريسا لعملها في المجال الفكري ، سواء في ابداعه بالممارسة الادبية او العمل به بطرائق اخرى لا تختلف كثيرا عن الممارسة ولما كانت هذه الفئة في طليعة الفئات المحركة الى التغيير الاجتماعي فانها مطالبة بسبب موقعها الاجتماعي ــ شريحة الطبقة المتوسطة ــ بتكييف وضعها مع الامر الواقع ومن هنا تبدأ قصة التناقض في شخصية الاديب العربي وهمومه .

فالطبقة المتوسطة التي تتألف من صغار التجار والباعة ومن الموظفين وصغار الحرفيين والمهنيين لا لا تستطيع ان تتمتع بالاستقرار المادي لانها من جهة تخشى ان تفقد وسيلتها الانتاجية فتصبح بين ليلة وضحاها كالطبقة الفقيرة وهذا يشكل كابوسا مرعبا لها ، ولانها من جهة اخرى تطمح الى الرخاء المادي والرفاه الاجتماعي اللذين تتمتع بهما الطبقة الغنية ، ولكن الاديب الذي يقع ضمن هذه الشريحة الاجتماعية هو اضعف عناصر هذه الشريحة من حيث الشعور بمتعة الاستقرار المادي او الاطمئنان على وضعه المعيشي فلا هو يتمتع بحرفة تدر عليه ربحا دون ان يضطر الى ان يقف في موقف الطليعة المحركة نحو التقدم الاجتماعي ، ولا هو بالقادر على احتراف حرفة مهنية كالطب او الهندسة وما شابه ذلك من حرف تجعله مستقلا من الناحية المادية استقلالا تاما ولهذا السبب نجد ان القسم الاكبر من الكتاب يقومون الى جانب عملهم الفكري الذي لا يدر ربحا كافيا لتحقيق الاستقرار بأعمال وظيفية سواء في قطاع الدولة او في القطاع الخاص .

ان العالم العربي ، وقبله دول العالم الثالث يعاني من تخلف في البنيان التحتي للمجتمع ، بمعنى ان التركيب الاجتماعي هو تركيب تقليدي اذ يتألف المجتمع العربي غير المصنع تصنيعا كافيا من شرائح اجتماعية متباينة فالطبقة الفقيرة لم تصل الى الحد الذي يؤهلها للسيطرة على السلطة في هذه البلدان . ان اكثر الانظمة العربية هي انظمة الطبقة الوسطى تحولت الى انظمة بيرقراطية غنية بفعل القوة المسلحة لا غير ، وهذه الانظمة تساندها شرائح اجتماعية اقطاعية أو شبه اقطاعية ، وعندما يتخذ الاديب العربي المعاصر موقعه في حركة الرفض من اجل التقدم الاجتماعي فانه يصطدم مع هذا الواقع وفي نفس الوقت يريد ان يتكيف معه لانه لا يستطيع ان يتحمل ضغوط الفئات الاجتماعية الحاكمة .

فالاديب عندما يكون موظفا يخضع لقانون الخدمة الوظيفية وعليه فهو ممنوع من الانتظام في حركة معارضة وممنوع من كتابة أي عمل ادبي يتناقض مع سياسةالدولة

التي تمنحه راتبه الذي يعتمد عليه في اعالة نفسه وعائلته واذا خرج على هذا الترتيب وجد نفسه فاقدا لوظيفته ولان عمله الفكري ذاته لا يدر عليه الربح المناسب لحياة مستقرة فهو اذن عرضة للجوع الحقيقي والفقر والتشرد.

وهذه الحالة التي تميز واقع الاديب في العالم العربي ودول العالم الثالث جعلت من احتراف الاديب مغامرة غير مأمونة العواقب وحسب الكاتب في هذا المناخ الاجتماعي والسياسي ان يقدم اعمالا ادبية لا تسخط عليها السلطة من ناحية ولا تقطع صلته بحركة التحرر الوطني والاجتماعي من ناحية اخرى .

ولهذا الخيار الذي توافر عليه عدد كبير من ادباء العربية المعاصرين عواقبه الوخيمة وفي ضوئه نستطيع ان نفسر ظاهرة الغموض في الاديب العربي وبموجبه ايضا نستطيع ان نفسر ظاهرة الحزن والتشاؤم والعودة الى الرومانتيكية في الشعر .

في الادب الاردني على سبيل المثال تتجلى سيكولوجية خاصة للكتاب سيما كتاب الشعر والقصة القصيرة فالغموض هو السمة اللافتة للانظار في النتاج القصصي وهناك عدد من كتاب القصة يشكلون رمزا لظاهرة الغموض وتنشر الصحف اليومية في كثير من اعدادها قصصا يرفض القراء مواصلة قراءتها لغموضها ويدعي الكتاب في الاجابة على هذا الاستفسار من القراء بأنهم أي الكتاب يجددون ويكتشفون وسائل جديدة في الرمز والتعبير لم يألفها القارىء وانعدام الالفة هو الذي يحيطها بالغموض ولكن الحقيقة غير ذلك .

فالقاص التقدمي محمود شقير ـ يكتب قصة قصيرة عنوانها التراب عن علاقة المناضل الفلسطيني بالارض بأسلوب لا يفهمه الناقد الادبي ولا الباحث فضلا عن القارىء العادي وعندما نحلل القصة نكتشف معانيها السياسية الايجابية فما الذي جعل القاص يغلف محتواه الايجابي بهذا التكنيك ؟ الكاتب فخري قعوار في قصته القصيرة ـ ممنوع لعب الشطرنج ـ يحاول ان يسلط الاضواء على مشكلة الانتماء السياسي في العالم العربي وكيف ان المنتمي في غالب الاحيان عرضة للاعتقال دون بيان الاسباب ودون ان يحق له الطعن امام أية مؤسسة قضائية كانت ولكن هذا المضمون عند القاص قعوار يصعب الوصول اليه حتى على رجل المباحث الذي رمز له بالرجل ذي النظارة السوداء .

وقد نشر الكاتب القصصي خليل السواحري قصة بعنوان (اليقظة المرعبة) عدل عنوانها غير مرة حتى يتجنب السؤال عن مغزاها ، فالقصة تتكلم عن صرعى الحوادث التي وقعت في عمان سنة ١٩٧٠ فهل يستطيع أي قارىء عربي كائنا من كان ان يتبين مضمونه ومغزاه ؟ وهناك مجموعة للقصاص جمال ابو حمدان تتناول موضوعات هي في صلب هموم الاديب العربي ، ولكن الضبابية والغموض جعلت منها الغازا في بعض الاحيان وأحاجي لا يسهل الوصول الى معناها في احايين اخرى وهؤلاء يعتبرون في مقدمة كتاب القصة القصيرة المبرزين في بلدنا الاردن والغموض في نتاجهم القصصي مرجعه عندي الى توافرهم على هذا الخيار .

ويعاني قراء الشعر الاردني من هذه الظاهرة فأكثر الشعراء التزاما بالخط السياسي الوطني ـ غسان زقطان ـ محمد لافي ـ ادوار حداد ـ مؤيد القبيلي ـ محمد الظاهر ـ وغيرهم كثيرا ما يضطرون الى الرمز تحت وطأة الحذر الشديد من ان يحصي عليهم المجتمع العربي الهفوات وهذا الموقف الوسطي في الواقع يجر اخطارا كبيرة على الشعر العربي فهو اولا لا ينجح في رفع رصيده الشعبي وهو ثانيا لا يستطيع ان يحقق انجازات شعرية قوية عالية المستوى .

ومن هنا تنشأ عزلة الكاتب عن الجماهير في عالمنا العربي وفي دول العالم الثالث فالاديب عندنا لم يستطع ان يجيب حتى الان على هذا السؤال : هل يخاطب الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها فقط ، أم انه يريد ان يكون اديبا من ادباء الطبقة الفقيرة يخاطب هذه الطبقة ؟ في كثير من الحالات يدعى الاديب العربي المعاصر بأنه اديب ينتمي الى الفقراء بمعنى ان يعبر عن هموم هذه الطبقة ويخاطبها ويستطيع هذا الاديب ان يحدد المفاهيم التقدمية التي يشتمل عليها ادبه ولكنه ليس بقادر على اثبات ان عاملا واحدا قرأ شعره او نتاجه الادبي وعندئذ يلجأ الى مقولة اخرى مستمدة من واقع اجتماعي متخلف هو شيوع الامية في هذه الطبقة غير انه لا يجد ما يقوله عندما يواجه بحقيقة ان هذه الطبقة التي لعبت ظروف كثير في جعلها طبقة جاهلة وتعاني من الامية لا يمكنها ان تستمع لشعره او ادبه لان النخبة المثقفة ذاتها لا تستطيع ان تستمع له او تفهمه .

ثمة خيار ثان امام الاديب العربي المعاصر هو ان يستسلم للواقع استسلاما تاما بمعنى ان يدع للدولة التي تخالف رأيه مجالا تستطيع فيه ان تحصي عليه الهفوات وهنا اما ان يسقط سقوطا ذريعا بالتخلي عن المضمون الثوري لمهمة النخبة المثقفة (الانتلجنسيا) والارتماء في حضن الطبقة الاعلى حيث يصبح هو الكاتب او الاديب الرسمي وعندئذ تصبح وظيفته ادبية رسمية تدر عليه ربحا يمتعه بالاستقرار المادي واما ان ينسلخ عن الواقع الاجتماعي والسياسي بشكل نهائي ومن هنا تأتي حالة الاغتراب في الادب العربي الحديث .

وبالنسبة لحالة السقوط هناك امثلة كثيرة في العالم العربي ولا اعتقد ان احدا هنا يعوزه المثل الشرود على هذا النمط من الكتاب فهم كثيرون ولا يخلو منهم على وجه

التقريب بلد من بلدان العروبة ولا من بلدان العالم الثالث وهؤلاء الادباء يشكلون الغالبية البارزة في كل بلد متخلف اذ ان اعمالهم وثقافتهم هي الاعمال والثقافة السائدة بفضل سيادة الطبقة التي ينضمون تحت لوائها اما الفئة الثانية فهي اكثر من الاولى تأثيرا في النتاج الادبي العربي الحديث ولو عدنا الى الوراء قليلا الى الستينات لوجدنا ان الكثير من النتاج الادبي في الشعر والقصة والرواية يحوم على محور واحد هو الاغتراب ، وصلاح عبد الصبور في مصر ، والسياب في العراق — وادونيس في دمشق وبيروت وعبد الرحمن عمر وحكمت العتيلي وتيسير سبول وامين شنار في الاردن كل هؤلاء قدموا شعرا كثيرا في الغربة والاغتراب وهذا النوع من الشعر عاد الينا بالهموم الرومانسية والحزن والتشاؤم والغموض ايضا .

هناك خيار ثالث امام الاديب العربي وهو الاستمرار في الاخلاص للهموم الحقيقية التي يتمخض عنها الواقع السياسي والاجتماعي بالمعنى الحاد لهذه الكلمة وهنا لا بد ان يصطدم بمشكلة كبيرة لا يخلو منها بلد عربي تقريبا ، وهي مشكلة الحريات الديمقراطية وقوانين الرقابة على المطبوعات وفي هذه الحالة اما ان يحجب الاديب العربي نتاجه عن جمهوره وفي ذلك عزلة قاتلة له واما ان يكون عرضة للاعتقال والتوقيف وهناك عدد غير قليل من الادباء العرب في مختلف الاقطار يتعرضون للحبس والتوقيف بل النفي احيانا وليست بعيدة عنا اسماء الشعراء الذين حوصروا وسجنوا في مثل هذه البلدان . ان الشاعر التركي ناظم حكمت مثال جيد على هذه الحالة في دول العالم الثالث .

اما في فلسطين المحتلة فقد جرب كل الادباء العرب هناك مسألة الاعتقال والتوقيف وصدرت مجموعات شعرية وقصصية لكتاب في السجون والكل يذكر ان سميح القاسم مثلا جرب الاعتقال غير فترة كما جرب محنة الاقامة الجبرية وخليل توما الشاعر قضى في السجن عددا من السنوات والقاص محمود شقير هو الاخر صدرت مجموعته وهو في السجن رهن الاعتقال الاداري .

وهناك ادباء اضطروا لهجرة اوطانهم والاقامة في بلاد اكثر تعاملا مع حرية التعبير وما من احد ينكر وجود عدد من الادباء العرب في باريس ولندن وبيروت وجميع هؤلاء الادباء هجروا وطنهم لانهم وجدوا انهم لا يستطيعون الاخلاص لهمومهم الحقيقية دون ان يتعرضوا للاذى .

على ان هذه الفئة من الادباء العرب المعاصرين هي التي تقوم بدورها المرسوم لها في نطاق التحريك نحو التقدم الاجتماعي والسياسي وهي الفئة الاشد اخلاصا في التعبير عن هموم الاديب العربي الحديث ومن سوء الحظ ان عدد هؤلاء الكتاب قليل ومن غير الممكن ان يتزايد هذا العدد في ظل ما هو سائد من سيطرة الادب الرسمي المتسلح بقوانين الرقابة على المطبوعات ولكن مزيدا من التضحيات ستحقق للاديب العربي سمعة اكثر جودة لدى الجماهير العربية وفي ذلك كله ما يؤدي مستقبلا لخلخلة البناء الثقافي ولكن هذا البناء سيظل مطابقا الى حد ما للبناء التحتي أي لمجمل العلاقات في المجتمع . ان تغيير التركيب الاجتماعي في البلاد العربية هو وحده الكفيل بتغيير البنية القومية ولكن المثقفين لا ينتظرون حدوث التغيير بل عليهم ان يبدأوا التغيير بأنفسهم .

ولا ننسى ان نلاحظ شيئا مهما وهو ان المسألة الفلسطينية تعد قاسما مشتركا لهموم الادباء العرب المعاصرين وقد استقطب الهم الفلسطيني ذو الطابع الخاص انتباه الكثرة الساحقة من ادباء العربية وفي كثير من الاحيان ينجح الادباء العرب في كتابة نماذج ادبية صادقة صدقا كاملا وعميقا حول هذا الموضوع وهو ما لا تستطيع الثقافة الرسمية معارضته او اضطهاده وبالتالي تظل المسألة الفلسطينية ثغرة ينفذ منها الاديب العربي للتعبير عن مضامين سياسية واجتماعية تقدمية دون ان تحصى عليه الهفوات الا في النادر القليل .

ومن اجل ذلك اعتقد ان الشعر الذي يتناول القضية الفلسطينية وقضية العدوان الاسرائيلي وكذلك القصة ، والمسرح يستوعب النسبة الكبيرة من الاعمال الادبية العربية الجيدة .

والخلاصة هي ان الاديب العربي يعيش ظرفا ساخنا خاصا هو الظرف السائد في عدد ملحوظ من الدول النامية او دول العالم الثالث تخلف في البناء التحتي يصحبه تخلف في البنية الفوقية وهو مضطر الى التعايش مع البنية التحتية والثورة عليها في آن واحد ، وهذا ما يجر الكثير من الاخطار على الادب العربي وهذه الاخطار هي التي جرت اليه خصائص كثيرة سلبية منها الغموض والحزن والاغتراب والعزلة عن جماهير القراء وانخفاض نسبة التوزيع في المطبوعات وكذلك هجرة المواهب الادبية واحيانا انقطاعها عن مواصلة العطاء الادبي

ابراهيم خليل

رابطة الكتاب الاردنيين/عمان